نكسة الأحزاب في انتخابات السلطات المحلية: الناصرة كنموذج

وديع عواودة*

أفرزت نتائج انتخابات الحكم المحلي العربي في الخريف الماضي مفاجآت هامة، أبرزها خسارة الجبهة حصنها المركزي، بلدية الناصرة، وبخسارة مرشحي أحزاب عربية مركزية لصالح قائمة جديدة يقودها فرد واحد. وهذا تكرر في بلدات عربية أخرى شهدت تراجع القوائم الحزبية، وهو ما يعكس ضعف وضمور الأحزاب العربية .

إلى جانب هذه الخسارة الموجعة، فقدت الجبهة بلدات هامة أخرى: شفاعمرو، طمرة، عرابة البطوف، دير حنا، ولم تسترد بلدية سخنين (أضلاع مثلث يوم الأرض). ومن هنا قد يُستنتج أن خسارة جبهة الناصرة لم تكن نتيجة مؤامرة، بل مردها إلى أسباب متراكمة ومتنوعة. كذلك مُنِيَ التجمع بخسارة لافتة في الناصرة، بحصول عضو الكنيست حنين زعبي على نتيجة متواضعة جدًّا، رغم كونه حزبًا معارضًا طرح البدائل (وهكذا في كفر كنا بحصول مرشحه للرئاسة رئيس الحزب واصل طه على المكان الرابع، بعدما أشغل رئاسة السلطة المحلية مرتين). كذلك خسرت قائمة الحركة الإسلامية (الموحدة) خسارة جسيمة في الناصرة، بعدما كان مرشحها يحصل على نحو 50% من الأصوات للرئاسة مقابل مرشح الجبهة.

انقسام بيروت

خلف النتيجة الفارقة في مسيرة جبهة الناصرة، بعد نحو أربعة عقود على الانقلاب الكبير عام 1975، تقف جملة أسباب أهمها ترهُّل الجبهة وإدارتها للبلدية، ولا سيما أن أجهزة الرقابة والإنذارات المبكرة داخل الجبهة لم تعمل رغم ازدياد الشكاوى في الشارع النصراوي من تدنّي الخدمات وسوء المعاملة

وبُعد رئيس البلدية عن الأهالي والأحياء الشعبية. وتشير هذه النتيجة إلى انهيار مقولة "ما في بديل لفلان". وأخطأ، في نظري، رئيس البلدية السابق رامز جرايسي (والجبهة) بعدم مشاركته المبكّرة برعاية جيل شاب يواصل المشوار، وبترشيح نفسه على مضضٍ معلَن، وبعدم قراءة التغييرات المختلفة في المدينة، وبخاصة في هوامشها. وممّا يدلّل على ترهل الجبهة وإدارة البلدية نشوء حركة "شباب التغيير" -وجلّ أعضائها جبهويون .

لذا عبّرت النتيجة عن رغبة الناخب في الاحتجاج على أداء الجبهة، أكثر ممّا عبّرت عن انحياز لعلي سلاّم. وتُظهر النتائج أن الناخبين ينتخبون من هو قريب لهم ويحافظ على روابط اجتماعية معهم؛ فعلي سلاّم شخصية تتمتع بكاريزما شعبية، وقوته في ضعفه وفي قربه من الناس، وفي السعي للتخفيف عنهم بمساعدات عينية فرأوا فيه كذلك فرصة لإسقاط الجبهة من سرايا البلدية. لم يكن بمقدور علي سلاّم ولا غيره أن يُلحِق بالجبهة مثل هذه الهزيمة لو أنها حافظت على مناعتها، وتخلّصت من استعلائية توجهاتها، وحافظت على صلتها مع جمهور هدفها الأساسي -الفقراء والمهمشين- ولم تستبدل الضواحي والأطراف بالمركز. أما الحملة الانتخابية المفرطة في سلبيتها، التي كانت بعنوان "علي سلاّم سيدمر البلد"، فزادت من تحامل أصحاب حق الاقتراع. إن الاستمرار في تخوين من يترك الجبهة أو ينافسها لم يعد سلاحًا مُجْدِيًا، وهو يذكّر بسلوك تاريخيّ مشابه ومخطوء مع "الحركة التقدمية" وَ "أبناء البلد."

ولا يمكن إغفال الانقسام الطائفي في المدينة. فخلال طيلة عقود من إدارتها للبلدية، لم تنجح الجبهة في تطبيق شعار "ديروا بالكم على بعض" الذي رفعه الراحل توفيق زياد، والنتيجة كانت أن أحياء المدينة ظلت متباعدة لا تجمع شبيبتَها أنديةٌ أو فرق رياضية أو منتديات اجتماعيّة جامعة. وقد زعزعت قضية شهاب الدين، في نهاية التسعينيّات، نسيجَ المدينة الاجتماعيَّ، وظلت جرحًا لم يندمل، ممّا ساهم في نشوء حالة كادت فيها تنقسم المدينة كانقسام عاصمة لبنان بين بيروت شرقية وبيروت غربية، وهذا انعكس، كذلك، على السلوك الانتخابي .

العمل الحزبي

تعكس هذه النتيجة حالة ضيق تُلازِم الجمهورَ، وتكشف النقاب عن رغبة عارمة في التغيير، وفي الوقت نفسه تكشف عن انحسار الاعتبارات الحزبية والموضوعية لصالح معايير شخصية، حاراتية وطائفية - نفعية، وتتوهم أوساط شعبية أن إسقاط الحزب الحاكم كفيل بتغيير أوضاعهم، بينما كانت أوساط أخرى ترى في علي سلاّم "فَشّة خلق"، وترى في إسقاط الجبهة واحتكارها مكسبًا بحد ذاته. ومن هذه الناحية، لم تختلف الناصرة كثيرًا عن القرى العربية، وينطبق عليها -إلى حد بعيد- استطلاع "مدى الكرمل" الجديد الذي أفاد أن 60% يرون الانتماء العائلي أهمَّ المعايير عند ممارسة حق الاقتراع. ما يزيد طينة العمل الحزبي بلة ويعرّضه للانتكاس هو لامبالاة وانكفاء المثقفين وهجرة أعداد كثيرة من الناصرة ومن الأرياف إلى المدن "المختلطة" (كنتسيرت عليت -على سبيل المثال)، ممّا يعيق تبلور وتعميق ثقافة التصويت المدني في بلداتهم.

خسارة التجمع

ما قيل عن الجبهة ينطبق الكثير منه على التجمع في الناصرة، في ما يتّصل بالعلاقة مع الجمهور الواسع. فرغم أنّه كان في موقع المعارضة ولم يتحمل مسؤولية أخطاء الإدارة الجبهوية، بدا هو كذلك حزبًا نخبويًّا على مدار العام، مكتفيًا باستخدام وسائل الاتّصال العامة مع جمهور لا ينتخب بمعظمه وَفق معايير موضوعية. كذلك اتسمت حملة التجمع في انتخابات الناصرة بطابع نخبويّ، وحملت مضامين عالية بعيدة عن إدراك جمهور أصحاب حق الاقتراع. علاوة على ذلك، لا يُستبعد أن يكون هذا الحزب قد تضرّر انتخابيًّا بترشُّح امرأة تتمتع بشخصية مستقلة لمنصب الرئاسة في مدينة ما زالت أوساط واسعة من مجتمعها -كما هو الشأن في معظم البلدات العربية- أبوية وذكورية التوجُّهات (عدد المرشحات للرئاسة والعضوية في الانتخابات الأخيرة يقل عن 1%).

إن إحراز مرشحَي التجمع في مدينتين هامتين (سخنين وشفاعمرو) مازن غنايم وأمين عنبتاوي مقابل إدارة جبهوية عريقة في البلديتين قد يعني أن الجمهور يرى في التجمع خيارًا في الحكم المحلي كذلك،

رغم خطابه السياسي النخبوي. وقد يعكس نجاحهما في الرئاسة مدى أهمية قرب المرشحين من الجمهور أيضًا. هذه النتائج تطرح سؤالاً هامًّا: لماذا نجح التجمع في شفاعمرو وسخنين وأخفق في الناصرة وكفر كنا؟ وهل تطول الأسباب اعتبارات محلية، علاوة على هُويّة المرشحين؟ الإجابة تحتاج إلى المزيد من المعطيات والبحث.

وإن رغب التجمع القيام بدور غير هامشي، فعليه استخلاص دروسه ودروس غيره؛ فنتائجه في الجولة الأولى -لا سيّما في ما يتعلق بترشيح حنين زعبي للرئاسة- كانت خسارة بالغة مثلما هو حال نتيجته في انتخابات مجلس كفر كنا. حريّ بالتجمع، الذي أعلن نيته قبل عام أو عامين موازنة العمل البرلماني بالعمل الميداني والاهتمام بالجبهة الداخلية، حريّ به عدم الاكتفاء بضعف الجبهة، والتعلم من أخطائه وأخطائها، والمكاسب الهامة التي حققها مرشحوه أو المقربون منه بوسعها أن تشكّل مصدرَ قوة وموطئَ قدم له نحو المزيد من الحضور في الساحة المحلية .

ربما كان من شأن جبهة الناصرة أن تنجو من هذا الانقلاب، لو أقدمت على ما فعلته يافة الناصرة، حيث أول مجلس حزبي- جبهوي في البلاد، باستبدالها مرشحيها مرة كل دورتين، وبقربها من الجمهور الواسع على مدار الأيام –على العكس من تجربة جبهة الناصرة في السنوات الأخيرة .

نظرية المؤامرة

أما تفسير الجبهة أو أوساط منها لخسارتها بالزعم أنها وليدة مؤامرة، فهذا يعكس رغبة في التهرب من حساب النفس وتصدير الأزمة إلى الخارج. ويبقى السؤال ملحًّا: هل جاءت الخسارات الجبهوية في شفاعمرو وطمرة وسخنين وعرابة ودير حنّا وغيرها هي كذلك وليدة مؤامرة؟ وأين مناعة الجبهة؟ يُستنتَج من تجربة الناصرة أن الترهل وعدم التجديد في الأداء والتوجهات والمرشحين في الانتخابات هي عناصر قادرة على إفشال حتى حزب عريق وقوي مثل جبهة الناصرة ومثل حركة "فتح" الفلسطينية أو حزب العمل الإسرائيلي من ناحية تجربتيهما وتراجعهما.

تدلّل تجربة الناصرة بمجملها على ازدياد التحديات أمام الأحزاب العربية في ظل تغيّرات اجتماعية تطول مجمل المجتمع الفلسطيني، منها تَراجُع قيمة العملين السياسي والجماعي والنضال من أجل التغيير، وتغلغل أفكار المجتمع الاستهلاكي. هذا يعني أن الأحزاب العربية -وليس في الناصرة فحسب- بحاجة إلى إعادة بناء، وإنعاش قوى، وتجديد أدوات، والمحافظة على مسافة قريبة من الميدان، لا تركيز جُلّ طاقاتها في البرلمان. وبدون هذه الجاهزية لإعادة بناء شاملة، قد نكون على أعتاب مرحلة "المخاتير الجدد" رؤساء قوائم عائلية وحاراتية وطائفية ممن يستغلون ضعف الطروحات والبدائل الحزبية.

* **وديع عواودة**، كاتب صحفي.